International Journal for Scientific Research (IJSR)

المجلة الدولية للبحوث العلمية

Vol. (4), No. (12) December 2025 الإصدار (4)، العدد (12)

التفسير بالمأثور نشأته وأهميته

خالد جمال غائب صالح

قسم علوم القران والتربية الإسلامية، كلية التربية للبنات، جامعه كركوك، العراق

Khaldalansari80@uokirkuk.edu.iq

الملخص

يتناول البحث موضوع التفسير بالمأثور: نشأته، أهميته، وأثره في بناء المناهج التفسيرية عبر العصور، يبرز دور النقل الموثوق عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين في فهم القرآن الكريم، ويبين الضوابط والشروط الواجب توفرها في المفسر لضمان صحة التفسير. كما يستعرض أثر التفسير بالمأثور في تطوير العلوم القرآنية، صيانة الهوية الدينية، وضمان استمرارية الفهم الصحيح للنص القرآني عبر الأجيال.

كلمات مفتاحية: نشأة التفسير، منهج التفسير، علوم القرآن، المفسر، الهوية الدينية.

The interpretation based on transmitted reports (Tafsir bil-Ma’thur): its origin and significance

Khaled Jamal Ghaeb Saleh

Department of Quranic Sciences and Islamic Education, College of Education for Girls, University of Kirkuk, Iraq

Khaldalansari80@uokirkuk.edu.iq

Abstract

This study explores Tafsir bil-Ma’thur (narrative-based exegesis): its origin, significance, and impact on shaping interpretive methodologies throughout history. It emphasizes the role of authentic transmission from the Prophet ﷺ, Companions, and Followers in understanding the Qur’an, and outlines the conditions and qualifications required of interpreters to ensure accurate exegesis. The study also highlights its influence on Quranic sciences, preservation of religious identity, and continuity of correct understanding across generations.

Keywords: Origin of Exegesis, Methodology of Exegesis, Quranic Sciences, Interpreter, Religious Identity.

International Journal for Scientific Research (IJSR)
المجلة الدولية للبحوث العلمية
Vol. (4), No. (12) December 2025 الإصدار (4)، العدد (12)

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ القرآنَ هُدى للناسِ وبيّناتٍ من الهدى والفُرقان، والصلاةُ والسلامُ على من أُنزِلَ عليه الذكرُ ليُبينَ للناسِ ما نُزّلَ إليهم، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين، أمّا بعد:

فإنّ علم التفسير يُعدّ من أجلِّ العلوم الشرعية وأشرفها، إذ يتعلّق بفهم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد كان المسلمون الأوائل يولون هذا العلم عناية بالغة، لأنه السبيل الأقوم لفهم مراد الله سبحانه وتعالى من كتابه العزيز، والعمل بأوامره ونواهيه.

ومن أبرز مناهج التفسير التي ظهرت في صدر الإسلام ما يُعرف بـ التفسير بالمأثور، وهو المنهج القائم على النقل والرواية؛ أي تفسير القرآن الكريم بما ورد في القرآن نفسه، أو في السنة النبوية، أو بأقوال الصحابة والتابعين الذين تلقوا العلم عن رسول الله ﷺ أو ممن عاصروه. ويتميّز هذا المنهج بكونه الأصل والأساس في علم التفسير، إذ لا يجوز لأي مفسر أن يخرج في فهمه عن دائرته، لأن المأثور يُعدّ المرجع الأول الذي تُقاس عليه الاجتهادات اللاحقة (الذهبي، 1976، ج1، ص33).

يتناول هذا البحث أحد أهم مناهج تفسير القرآن الكريم، وهو التفسير بالمأثور الذي يُعد الأصل والأساس في فهم كلام الله تعالى، إذ يعتمد على النقل والرواية عن النبي ﷺ، والصحابة، والتابعين، مما يمنحه موثوقية وموضوعية عالية.

وتأتي فكرة هذا الموضوع من كونه يُظهر أصالة المنهج الإسلامي في تفسير القرآن، ويبين تطوره عبر العصور، وأثره في ضبط الفهم القرآني وتوحيد دلالاته.

من هنا، يسعى هذا البحث إلى دراسة مفهوم التفسير بالمأثور، ونشأته، وأهميته في فهم كتاب الله تعالى، من خلال تحليل المراحل التي مرّ بها، وبيان أثره في ضبط مناهج التفسير اللاحقة، مع الاعتماد على المصادر الأصيلة في علوم القرآن والتفسير.

اولاً: مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي:

ما هو منهج التفسير بالمأثور؟ وكيف نشأ وتطور؟ وما أهميته في فهم النص القرآني؟

ثانياً: أهداف البحث

1. بيان مفهوم التفسير بالمأثور وحدوده.
2. توضيح نشأته التاريخية ومراحله.

3. إبراز مكانته بين مناهج التفسير الأخرى.
4. توضيح أثره في حفظ المعنى الصحيح للقرآن الكريم.

ثالثاً: أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من أن التفسير بالمأثور هو الركيزة التي بُنيت عليها المناهج التفسيرية الأخرى، فهو يحافظ على نقاء الفهم القرآني كما تلقّاه الصحابة عن النبي ﷺ، ويُبعد المفسرين عن الانحرافات التي قد تنشأ من التأويلات البعيدة أو الأهواء الفكرية. كما أن دراسة نشأته وتطوره تكشف عن المسار العلمي لتدوين علوم القرآن وتُظهر جهود العلماء في حفظ هذا التراث.

رابعًا: منهج البحث

اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي؛ إذ تم جمع المادة العلمية من كتب التفسير وعلوم القرآن، وتحليلها وفق الأسس المنهجية المتعارف عليها في الدراسات القرآنية، اذ يعتمد البحث على جمع النصوص والآثار المتعلقة بالتفسير بالمأثور، ثم تحليلها واستنباط دلالاتها العلمية.

خامسًا: خطة البحث

- تمهيد: تعريف عام بالتفسير وخصائصه.
- المبحث الأول: مفهوم التفسير بالمأثور ويشمل ثلاث مطالب: الأول: تعريف التفسير المأثور لغة واصطلاحًا، الثاني: مصادر التفسير بالمأثور، الثالث: خصائص التفسير بالمأثور وميزاته.
- المبحث الثاني: المسار التاريخي للتفسير بالمأثور عبر العصور الإسلامية، ويشمل ثلاث مطالب: الأول: التفسير في عصر النبوة والخلافة الراشدة، الثاني: التفسير المأثور في العصر الأموي، الثالث: التفسير المأثور في العصر العباسي.
- المبحث الثالث: أهمية التفسير بالمأثور وأثره، وفيه مطلبين: الأول: أهمية التفسير بالمأثور في حفظ الفهم الصحيح للقرآن، الثاني: أثر التفسير بالمأثور في بناء المناهج التفسيرية اللاحقة.
- وأخيرا ينتهي البحث بالخاتمة، وقائمة المراجع والمصادر.

تمهيد: تعريف التفسير وأهميته في الفهم القرآني

جاء لفظ "التفسير" في اللغة من مادّة (فَسَرَ)، وهي تدل على الإيضاح والكشف، فيُقال: "فسّر الشيءَ" أي بيّنه وأوضحه (ابن فارس، 1979، ص45). وقال الراغب الأصفهاني (ت 502هـ): "التفسير هو إظهار

المعنى المعقول من اللفظ المشكل" (الأصفهاني، 1992، ص67).

أمّا اصطلاحًا، فقد عرّفه العلماء بعدة تعريفات، منها قول الزركشي (ت 794هـ): "علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكمه" (الزركشي، 1957، ج1، ص12). وهذا التعريف يبرز الهدف الرئيس من علم التفسير، وهو فهم الخطاب الإلهي على وجهه الصحيح.

وتعد نشأة علم التفسير إجمالًا مع بزوغ فجر الإسلام ونزول الوحي، إذ كان النبي ﷺ هو أول من تولّى بيان معاني القرآن وتوضيح ما أشكل منه على الصحابة، تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل، الآية 44)

فالتفسير هو الوسيلة التي يُفهم بها كلام الله تعالى، وقد نبه القرآن إلى ضرورة تدبر آياته، فقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص، الآية 29)، وهذا يدل على أن التدبر لا يتحقق إلا بفهمٍ صحيحٍ للمعاني، وهو ما يقوم به علم التفسير (خلف، 2021، ص7) ولذا عُدّ من أشرف العلوم وأعظمها أجرًا، لأنه يتناول أشرف كلام، صادر من أشرف مُتكلّم، نزل به أشرف ملك، على أشرف نبي، في أشرف أمة (الزرقاني، 1996، ج1، ص24).

وقد قسّم العلماء التفسير إلى قسمين: هما التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، فالأول يعتمد على النقل الموثوق، والثاني يعتمد على الاجتهاد المبني على اللغة والأدلة الشرعية. وقد أكّد العلماء أنّ التفسير بالمأثور هو الأصل الذي يُحتكم إليه عند الخلاف، لأنه يُنقل عن مصادر معصومة أو قريبة من العصمة، بخلاف الرأي الذي يحتمل الخطأ (ابن تيمية، 1999، ص85).

قال الإمام ابن تيمية (ت 728هـ): "أصحّ طرق التفسير أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، فإن لم يُوجد فبما اتفق عليه التابعون" (ابن تيمية، 1999، ص87)، وهذا الترتيب هو الأساس الذي يقوم عليه التفسير بالمأثور، وهو ما سيتناوله البحث تفصيلًا في فصوله اللاحقة.

المبحث الأول: مفهوم التفسير بالمأثور

المطلب الأول: تعريف التفسير بالمأثور:

يُعدّ التفسير بالمأثور من أقدم وأوثق المناهج التي نشأت في خدمة القرآن الكريم، إذ يعتمد على النقل والرواية في تفسير الآيات، دون اللجوء إلى الرأي والاجتهاد الشخصي إلا في حدود اللغة والسياق، وقد عرّفه الإمام الذهبي (ت 1397هـ) بقوله: "هو ما ورد تفسيره في القرآن أو في السنة الصحيحة أو عن الصحابة أو التابعين الذين أخذوا عنهم" (الذهبي، 1976، ج1، ص45).

ويُلاحظ من هذا التعريف أنه قائم على سلسلة علمية متصلة تبدأ بالوحي وتنتهي عند الطبقة الأولى من الأمة، أي الذين عاصروا نزول القرآن وفسّروه فهمًا وسماعًا.

كما عرّفه الزركشي (ت 794هـ) بقوله: "التفسير بالمأثور هو ما جاء عن رسول الله ﷺ في بيان مراد الله تعالى من كلامه، أو ما ورد عن الصحابة والتابعين في تفسير آياته" (الزركشي، 1957، ج1، ص98).

وعرّفه ابن تيمية (ت 728هـ) بأنه: "ما فُسّر به القرآن بالقرآن، أو بما صح عن الرسول ﷺ، أو بما قاله الصحابة رضي الله عنهم" (ابن تيمية، 1999، ص89).

إذن فالمشترك بين هذه التعريفات أن التفسير بالمأثور يعتمد على الرواية والنقل الثابت، لا على الاجتهاد الحر، مما يمنحه ثقة وموضوعية عالية في بيان مراد الله تعالى. (الجبوري، 2020، ص13).

ثانيًا: الفرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي تفرّق المصادر القرآنية بين منهجين رئيسين في التفسير:

التفسير بالمأثور، الذي يعتمد على النقل الصحيح.

التفسير بالرأي، الذي يعتمد على الاجتهاد والفهم العقلي.

وقد أوضح الزرقاني (ت 1367هـ) أن التفسير بالمأثور هو "الأصل الذي يُردّ إليه كل تفسير، لأنه يربط المفسر بالمصدر الإلهي المعصوم" (الزرقاني، 1996، ج1، ص33)، بينما التفسير بالرأي – رغم مشروعيته في بعض جوانبه – قد يُفضي إلى الانحراف إذا لم يُبنَ على أسس صحيحة من النقل.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (سورة يونس، الآية 39)، وفي هذا تنبيه إلى أن تأويل القرآن يجب أن يُبنى على العلم الموثوق، لا على الظنّ والتخمين.

المطلب الثاني: مصادر التفسير المأثور:

أولًا: تفسير القرآن بالقرآن: يُعد تفسير القرآن بالقرآن أعلى مراتب التفسير بالمأثور، وأوثقها، لأنه يعتمد على تفسير كلام الله بكلامه دون واسطة بشرية، قال ابن كثير (ت.774هـ) في تفسير القرآن العظيم: "فإن أعياك تفسير آية فالتمس تفسيرها في موضع آخر من كتاب الله، فإن القرآن يُصدق بعضه بعضًا ويُفسر بعضه بعضًا"(ابن كثير، 1999، ج1، ص8).

ومن امثلة ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 7) يُفسّر الله تعالى "المغضوب عليهم" و"الضالين" في آيات أخرى، كما ورد في قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: 99)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ (الجمعة: 6)، وقد بيّنت هذه الآيات أن "المغضوب عليهم" هم اليهود و"الضالين" هم النصارى (ابن كثير،

1999، ج1، ص8)، وهذا النوع من التفسير الأعلى درجة من حيث الموثوقية لأنه تفسيرٌ إلهي لكلام إلهي، وبالتالي فهو لا يحتمل الخطأ ولا الاجتهاد.

ثانيًا: تفسير القرآن بالسنة النبوية: هو المصدر الثاني في التفسير بالمأثور، لأن النبي ﷺ هو المبيّن عن الله تعالى لمعاني كتابه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: 44)، وقد فسّر النبي ﷺ كثيرًا من الآيات أثناء حياته، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: 7)، فأوضح ﷺ أنها تعني: النبيون والصدقون والشهداء والصالحون (الترمذي، 1998، ج5، ص256)، ومن العلماء الذين اهتموا بجمع هذا النوع من التفسير: عبد الرزاق الصنعاني (ت.211هـ): محدّث ومفسّر يمني، له مؤلفات عديدة منها المصنف في الحديث وتفسير القرآن (الذهبي، 1976، ج2، ص112)، وابن جرير الطبري (ت.310هـ): مفسر ومؤرخ، يُعد تفسيره من أوسع وأوثق كتب التفسير بالمأثور (ابن النديم، 1997، ص321).

ثالثًا: تفسير القرآن بأقوال الصحابة: الصحابة رضوان الله عليهم أدرى الناس بالقرآن بعد النبي ﷺ، فهم شهدوا التنزيل وسمعوا التفسير منه مباشرة، وعرفوا أسباب النزول وسياق الآيات، قال ابن مسعود (ت.32هـ): "والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيمَ نزلت وأين نزلت"

(السيوطي، 1988، ج2، ص10)، ومن أبرز من فسّر القرآن بالمأثور: ابن عباس (ت.68هـ): لقّبه علي بن أبي طالب بـ "ترجمان القرآن"، وكان من أعلم الصحابة بالقرآن والتفسير، وأبي بن كعب (ت.22هـ): من كتّاب الوحي، أخذ عنه التابعون علم التلاوة والتفسير.

كتفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22)، قال: الأنداد هو الشرك الخفي، كأن يقول الرجل: لولا كلبنا هذا لأتانا اللصوص (ابن أبي حاتم، 1998، ج1، ص42).

رابعًا: تفسير القرآن بأقوال التابعين: التابعون هم الذين لقوا الصحابة وتعلموا منهم، وهم حلقة وصل مهمة في نقل المأثور، من أبرزهم: مجاهد بن جبر (ت.104هـ)، عكرمة مولى ابن عباس (ت.107هـ)، وسعيد بن جبير (ت.95هـ)، قال الذهبي: "اعتماد التابعين في التفسير على ما سمعوه من الصحابة، ولذلك كان تفسيرهم من التفسير بالمأثور أيضًا" (الذهبي، 1976، ج1، ص67)، ومنها تفسير مجاهد بن جبر لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (الأنبياء: 7)، قال مجاهد: أي: أرسلنا الرسل من البشر دون الملائكة، ووهبنا لهم الوحي لبيان الدين للناس (السيوطي، 1998، ج1، ص24).

من خلال دراسة هذه الأنواع، يمكن القول ان تفسير القرآن بالقرآن: هو الأكثر موثوقية، لأنه تفسير كلام الله بكلامه، ثم يليه تفسير القرآن بالسنة النبوية الذي يعطي فهمًا عمليًا للآيات، ويُبرز المقصود من الأحكام والنواهي، كمان تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين يربط النص القرآني بسياقه التاريخي

واللغوي، ويعطي الأولوية للمصادر الأقرب للنبي ﷺ، وأخيرا فان جميع هذه الأنواع تشترك في الاعتماد على النقل الثابت، والسند الصحيح، والابتعاد عن التأويل الباطل.

المطلب الثالث: خصائص التفسير بالمأثور:

يُعد التفسير بالمأثور من أهم المناهج في علوم القرآن الكريم، لما له من دور مركزي في ضبط المعنى القرآني وحفظه من التأويل الخاطئ، ويمتد تأثيره إلى جميع ميادين الدراسات القرآنية. ويمكن تلخيص أهمية هذا النوع من التفسير في عدة محاور رئيسة:

أولًا: الحفاظ على المعنى الأصلي للقرآن: التفسير بالمأثور يعتمد على الرواية الموثوقة من القرآن نفسه، أو السنة النبوية، أو أقوال الصحابة والتابعين، يقول ابن كثير (ت.774هـ): "التفسير بالمأثور هو الركيزة التي تحفظ القرآن من أن يُفهم بمعنى مخالف للمراد الإلهي"(ابن كثير، 1999، ج1، ص12).

ويأتي هذا حفاظًا على المعنى الأصلي للآيات، كما يظهر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (الأنبياء: 7)، فقد فسّر الصحابة هذه الآية بوضوح: أن الرسل بشر أرسلوا للناس بالوحي، وهو المعنى الذي أراده الله، دون تأويلات باطلة (السيوطي، 1998، ج1، ص24).

ثانيًا: توفير الموثوقية العلمية في التفسير: التفسير بالمأثور يُعطي المفسر درجة عالية من الموثوقية لأنه يعتمد على النقل الموثق بالسند الصحيح، قال الذهبي (ت.1397هـ): "الاعتماد على المأثور يضمن ثبات المعنى وصدق التفسير، ويبعد الباحث عن الاجتهادات الشخصية غير المستندة إلى الدليل" (الذهبي، 1976، ص78).

مثال على ذلك: تفسير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: 7) فقد فسّره النبي ﷺ: "هم النبيون والصدقون والشهداء والصالحون" (الترمذي، 1998، ج5، ص256)، وهذا تفسيرٌ موثوق ومثبت بالرواية.

ثالثًا: أساس لبناء التفسير بالرأي: التفسير بالمأثور هو المرجعية الأساسية لأي اجتهاد لاحق في التفسير بالرأي، قال ابن تيمية (ت.728هـ): "إذا أراد المفسر الاجتهاد في تأويل القرآن، فعليه أن يبدأ بما ورد عن المعصوم أو الصحابة، فكل اجتهاد يخالف المأثور مردود" (ابن تيمية، 1987، ص91)، وبالتالي، فإن التفسير بالرأي لا يكون صحيحًا إلا إذا ارتبط بالمأثور كأساس، وإلا فقد يؤدي إلى انحراف المعنى.

رابعًا: الربط بين النص القرآني والواقع التاريخي: التفسير بالمأثور يساعد على فهم السياق التاريخي واللغوي للآيات، من خلال أقوال الصحابة والتابعين، مثال ذلك: تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22)، قال ابن عباس: الأنداد هو الشرك الخفي، كأن يقول الرجل: لولا كلبنا هذا لأتانا اللصوص (ابن أبي حاتم، 1998، ج1، ص42). هذا التفسير يربط النص

بالواقع الاجتماعي واللغوي الذي عاشه الصحابة، وهو ما يعزز فهم الآية بطريقة دقيقة.

خامسًا: المحافظة على التراث التفسيري الإسلامي: التفسير بالمأثور هو القاعدة التي حفظت علوم القرآن على مر العصور، إذ جمعه العلماء في كتب موسوعية، مثل: تفسير الطبري (ت.310هـ): موسوعة كبيرة، جمع فيها كل الروايات المأثورة، ورتبها حسب مصادرها (الذهبي، 1976، ص78)، وتفسير ابن كثير (ت.774هـ): جمع بين تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة والتابعين، مع النقد والتحليل، بهذا يضمن التفسير بالمأثور انتقال المعلومة الصحيحة من جيل إلى جيل دون انحراف.

سادسًا: تعزيز الفهم العقائدي والشرعي: التفسير بالمأثور يوجه الفهم القرآني ضمن إطار العقيدة الصحيحة، ويبعد عن التفسيرات الشاذة أو الباطلة، قال النبي ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" (الترمذي، 1998، ج5، ص199)، وهذا الحديث يؤكد على أن التفسير بالمأثور هو حماية للمعنى من التحريف البشري، ويؤكد على أهمية الالتزام بالرواية الموثوقة.

المبحث الثاني: المسار التاريخي للتفسير بالمأثور عبر العصور الإسلامية

يُعد التفسير بالمأثور أول منهج وُضع لتفسير كتاب الله تعالى، إذ نشأ مع نزول الوحي واستمر تطوره عبر العصور الإسلامية. تميز هذا التفسير بارتباطه المباشر بالمصدر الإلهي، وبكونه الطريق الأوثق لفهم مراد الله تعالى، وقد تعاقبت عليه مراحل متعددة من الشرح والتدوين، حتى أصبح علمًا قائمًا بذاته.

المطلب الأول: التفسير بالمأثور في العصر النبوي والخلافة الراشدة:

يُعد العصر النبوي المرحلة الأولى في نشأة التفسير بالمأثور، حيث كان النبي ﷺ هو المفسر الأول للقرآن الكريم. فكان الصحابة يرجعون إليه في بيان معاني الآيات الغامضة، أو ما يحتاج إلى توضيح في الأحكام والعقائد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: 44)، فبيان النبي ﷺ للقرآن هو أصل التفسير بالمأثور (ابن تيمية، 1987، ص45).

وقد كان منهج النبي ﷺ في تفسير القرآن: كان النبي ﷺ يفسر القرآن بثلاث وسائل رئيسة:

1. القرآن بالقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (سورة النساء: 69)، وهو تفسير لقوله في الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: 7) (الطبري، 2001، ج1، ص12).
2. القرآن بالسنة، كما فسّر قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ وَالْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر: 32) ن فقال ﷺ: «السابق بالخيرات الذي يؤدي الحقوق كلها، والمقتصد الذي يؤدي بعضًا ويقصر في بعض، والظالم نفسه الذي يخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا» (الترمذي، 1998، ج5، ص301).

3. الشرح بالبيان العملي، كما فعل في بيان معاني الزكاة والصلاة والحج وغيرها، إذ كانت أفعاله تطبيقًا عمليًا لتفسير النصوص (السيوطي، 1998، ج2، ص41).

ومن اهم خصائص التفسير النبوي الوضوح والإيجاز: فالنبي ﷺ لم يكن يفسر كل آية، بل ما يحتاجه الصحابة (ابن عاشور، 1997، ج1، ص34)، والتركيز على المعاني الإيمانية والتربوية، وسلامة اللغة، لأن الوحي نزل بلسان عربي مبين.

وقد حفظت السنة النبوية جانبًا كبيرًا من التفسير، وكان الصحابة يعتنون بتدوينها وضبطها. وبهذا وُضعت اللبنة الأولى لما صار لاحقًا علم "التفسير بالمأثور".

بعد وفاة النبي ﷺ، تولى الصحابة رضي الله عنهم مسؤولية تفسير القرآن الكريم للأمة. فقد كانوا الأقرب إلى عصر التنزيل، وشهدوا أسباب النزول، وعرفوا اللغة والسياق التاريخي، ومن ابرز ملامح هذه الحقبة أن منهج الصحابة في التفسير تميز بالرجوع إلى القرآن والسنة، امتدادًا لمنهج النبي ﷺ، فضلا عن الاعتماد على الفهم اللغوي والعرفي، وتفسير القرآن بأسباب النزول، ويعد عبد الله بن عباس (ت.68هـ) رضي الله عنه من أبرز مفسري الصحابة حيث لُقّب بـ ترجمان القرآن، وهو أشهر من رُوي عنه التفسير بالمأثور، قال عنه النبي ﷺ «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل» (البخاري، 1997، رقم 143)، وعبد الله بن مسعود (ت.32هـ) رضي الله عنه، اذ كان من كبار قراء الصحابة، ومن أكثرهم رواية في التفسير، حتى قال: ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيمن نزلت (الذهبي، 1976، ص112)، وأُبيّ بن كعب (ت.30هـ) رضي الله عنه، وهو أحد كتبة الوحي، وكان مرجعًا للصحابة في فهم القرآن. قال عمر بن الخطاب عنه: أقرؤنا أُبيّ (البخاري، 1997، رقم 4998).

المطلب الثاني: التفسير بالمأثور في العصر الأموي (41هـ – 132هـ):

يُعد العصر الأموي مرحلةً انتقالية محورية في تاريخ التفسير بالمأثور، إذ اتسم بالاتساع الجغرافي للعالم الإسلامي، وبنمو المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام، مما أسهم في تنظيم عملية النقل والرواية، وتحول التفسير من جهدٍ فرديٍّ إلى علمٍ أكثر انتظامًا (الذهبي، 1976، ص115).

وقد شهد هذا العصر بروز نشاط علمي واسع في تفسير القرآن، ارتكز على كثرة رواية التابعين عن الصحابة: فقد انتشر الصحابة في الأمصار لتعليم الناس، مثل: عبد الله بن عباس في مكة، وتتلمذ عليه مجاهد بن جبر، وعكرمة مولاه، وسعيد بن جبير، عبد الله بن مسعود في الكوفة، وتتلمذ عليه علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والحسن البصري، وزيد بن ثابت وأُبيّ بن كعب في المدينة، وتخرّج على أيديهم تلامذة كثيرون (السيوطي، 1998، ج2، ص66).

وعليه فان التفسير بالمأثور في عصر التابعين فقد توسّع، وانتشر العلم في الأمصار، وبدأ تلامذة الصحابة

في جمع وتدوين أقوالهم، وظهرت مدارس مختلفة في الامصار الإسلامية بهذا الشأن وأشهر مدارس التفسير بالمأثور في هذا العصر:

1. مدرسة مكة: اعتمدت على أقوال ابن عباس، وتميزت بالعناية بأسباب النزول والمعاني اللغوية، يتصدرها مجاهد بن جبر (ت.104هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت.105هـ)، وقد أخذا التفسير عن ابن عباس مباشرة (السيوطي، 1998، ج2، ص55).
2. مدرسة المدينة: عنيت بالأحاديث النبوية والأحكام الشرعية، من أعلامها زيد بن أسلم (ت.136هـ) ومحمد بن كعب القرظي (ت.120هـ)، وتركزت على التفسير بالعقيدة والسلوك.
3. مدرسة العراق: جمعت بين الرواية واللغة والنحو، وأثرت لاحقًا في منهج المفسرين، يتصدرها الضحاك بن مزاحم (ت.105هـ) والحسن البصري (ت.110هـ)، وامتازت بعرض الروايات مع التحليل اللغوي.

وقد اتسم التفسير بالمأثور في هذه المرحلة بخصائص متميزة، كالاعتماد الصارم على السند، وذلك نتيجةً لانتشار الوضع في الحديث، بدأ العلماء يُدقّقون في الأسانيد، فظهر علم الجرح والتعديل كآليةٍ لحماية الرواية التفسيرية (الذهبي، 1976، ص126)، والابتعاد عن الإسرائيليات غير الموثوقة، فمع اتساع الدولة الإسلامية ودخول بعض أهل الكتاب، ظهرت روايات إسرائيلية، فوقف العلماء منها موقف النقد والتمحيص، كما فعل الحسن البصري ومجاهد في رفض الأخبار المنكرة، والربط بين النص القرآني والفقه العملي، اذ بدأ المفسرون في هذا العصر يربطون بين التفسير والأحكام الفقهية، مما مهّد لاحقًا لظهور التفسير الفقهي، وقد ظهر في ذلك العرص مفسرين بارزين مازالت تفاسيرهم باقية وشاهدة على عظم ما أنجزوه، وأبرز أعلام التفسير بالمأثور في العصر الأموي كمجاهد بن جبر (ت.104هـ) وهو من أبرز تلامذة ابن عباس، عرض عليه المصحف ثلاث مرات يسأله عن كل آية، حتى قال عنه سفيان الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به" (الذهبي، 1976، ص119)، وسعيد بن جبير (ت.95هـ): تلميذ ابن عباس، تميز بعمق لغوي وروايات موثوقة، وكان مرجعًا لأهل الكوفة في التفسير، وعكرمة مولى ابن عباس (ت.105هـ) الذي اعتمد في تفسيره على أسباب النزول، واعتنى بالمعاني البلاغية واللغوية، والضحاك بن مزاحم (ت.105هـ) والحسن البصري (ت.110هـ): اللذان جمعا بين التفسير النقلي والتحليل العقلي الجزئي، واهتما بربط الآيات بالواقع الاجتماعي.

لقد أسهم العصر الأموي في إرساء أسس استمر عليها المفسرون بعده أهمها تثبيت الرواية المأثورة كمنهج رئيس في فهم القرآن، ونقل التفسير من المجال الشفوي إلى التدوين الأولي، إضافة الى ظهور المدارس العلمية التي أصبحت لاحقًا مناهج تفسيرية متميزة، كما ظهر في هذا العصر موضوع التأصيل

النقد العلمي للأخبار التفسيرية وتمييز الصحيح من الضعيف، قال الذهبي في التفسير والمفسرون: "في العصر الأموي تم تثبيت أركان علم التفسير بالرواية، فكان عصر جمع وتأصيل وتصفية من الدخيل" (الذهبي، 1976، ص130).

وعليه يمكننا القول أن العصر الأموي لم يكن مجرد حلقة زمنية بين الصحابة والتابعين، بل مثّل مرحلة نضج أولى للتفسير بالمأثور من حيث المنهج والرواية والنقد العلمي، ممهّدًا لمرحلة التدوين الكبرى في العصر العباسي، حيث وُضعت المصنفات الجامعة كـ"جامع البيان" للطبري و"تفسير عبد الرزاق".

المطلب الثالث: التفسير بالمأثور في العصر العباسي:

يمثّل العصر العباسي (132هـ – 656هـ) مرحلة النضج والتكامل في علوم التفسير عامة، وفي التفسير بالمأثور خاصة، إذ انتقل التفسير من مرحلة الرواية والشفوية المحدودة في العصرين الراشدي والأموي، إلى مرحلة التدوين المنظم والتحليل النقدي للروايات.

ففي ظلّ ازدهار الحركة العلمية، وتطور علوم الحديث واللغة والنحو والفقه، أصبحت دراسة القرآن الكريم محور النشاط العلمي في الأمصار الإسلامية، وظهر عدد من العلماء الذين جمعوا بين الرواية الدقيقة والتحليل العقلي المعتدل (الذهبي، 1976، ص145).

فقد شهدت الدولة العباسية ازدهارًا علميًا وثقافيًا غير مسبوق، تمثّل في كثرة العلماء والمحدثين والمفسرين، وأصبحت بغداد والبصرة والكوفة مراكز كبرى للعلوم، واجتمع فيها كبار المحدّثين والرواة، ان هذا الحراك العلمي أتاح جمع الروايات التفسيرية من مختلف الأمصار وتوثيقها بأسانيد دقيقة (السيوطي، 1998، ج2، ص78).

ازدهرت مدرسة الحديث التي اعتمدت النص المأثور، ومدرسة اللغة والنحو التي أسهمت في ضبط معاني القرآن وتفسير ألفاظه، مما جعل التفسير بالمأثور يستفيد من المنهجين معًا، ومع انتشار الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية، كان لا بد من تثبيت منهج التفسير بالمأثور كميزان شرعي أصيل في مواجهة التفسيرات العقلية المتأثرة بالثقافات الوافدة، اذ تبلور المنهج في هذا العصر في سمات واضحة، منها التدوين المنهجي للروايات التفسيرية، حيث بدأ العلماء يجمعون الروايات في مصنفات متخصصة تجمع أقوال النبي ﷺ، وأقوال الصحابة، والتابعين بترتيب الآيات، ومن أوائل هذه المصنفات، تفسير ابن جرير الطبري (ت.310هـ)، الذي يعد من اهم مراجع التفسير في العصور التي تلت تأليفه والى يومنا هذا يقول ابن تيمية في بيان فضل الطبري: "أعلم الناس بالتفسير هو محمد بن جرير الطبري، فإنه جمع أقوال السلف وبيّن مأخذها" (ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص25).

كما تميزت التفاسير في العصر العباسي بنقد الروايات وتمييز الصحيح من الضعيف، والتي جاءت نتيجة

نضوج علم الحديث، بدأ المفسرون يفرّقون بين الرواية المقبولة والموضوعة، ويعتمدون قواعد الجرح والتعديل، فاستقر المنهج النقدي في التفسير بالمأثور (الذهبي، 1976، ص152).

وبرز مفهوم التحليل اللغوي والبلاغي للنص القرآني، حيث استفاد المفسرون من علوم النحو واللغة والقراءات في شرح معاني الآيات، دون الخروج عن حدود المأثور، ويُعد الفراء (ت.207هـ) والزجاج (ت.311هـ) من أوائل من ربطوا بين التفسير المأثور والتحليل اللغوي.

ومع اتساع المذاهب الفقهية، استخدم المفسرون الروايات التفسيرية في استنباط الأحكام من خلال الربط بين الرواية والفقه، كما في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير لاحقًا.

وعليه فان يمكن عد العصر العباسي مرحلة التثبيت والتأصيل لعلم التفسير بالمأثور، إذ تحققت فيه النتائج أهمها انتقال التفسير من الرواية إلى المنهج العلمي المكتوب، وتأسيس قواعد النقد والتوثيق السندي في الروايات التفسيرية، ودمج التفسير المأثور بالتحليل اللغوي والفقهي المنضبط والتي قادت إلى إنتاج مؤلفات شاملة أصبحت مرجعًا لكل من جاء بعدهم.

قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن: "بلغ علم التفسير غايته في العصر العباسي، إذ دوّن العلماء أقوال السلف بالأسانيد الموثوقة وصار علمًا قائمًا بذاته" (الزركشي، 1988، ج1، ص94).

فالعصر العباسي مثّل الذروة العلمية للتفسير بالمأثور، حيث استقرّت مناهجه، وتكاملت أدواته، وتدوّنت أصوله الكبرى، فأصبح مرجعًا لكل مدارس التفسير اللاحقة، وقد امتد أثر مفسريه إلى القرون التالية، فصار منهجهم قاعدة لتفسير السلف الذي يُعتمد عليه إلى يومنا هذا.

المبحث الثالث: أهمية التفسير بالمأثور وأثره

التفسير بالمأثور، في جوهره، ليس مجرد نقل للأقوال، بل هو جسر بين النص الإلهي ووعي الإنسان المتلقي، يربط بين زمن الوحي والواقع المعاصر للقارئ. تكمن قوته في أن المفسر لا يكتفي بفهم الكلمات المجردة، بل ينهل من ينابيع النص الأصلي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، بحيث يصبح التفسير امتدادًا حيًا للتجربة الإيمانية للجيل الأول، مرآة لما قصد الله من التشريع والتهذيب، وشاهدًا على بلاغته وفصاحته المطلقة، ففي التفسير بالمأثور، لا مكان للاجتهادات العشوائية أو التأويلات الشخصية، بل هناك التزام دقيق بالسند ومصداقية النقل، ما يجعله حارسًا للمعنى الإلهي من أي انحراف. يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: 44).

المطلب الأول: أهمية التفسير بالمأثور في حفظ الفهم الصحيح للقرآن:

التفسير بالمأثور يمثل القلب النابض لفهم القرآن الكريم، إذ هو الوسيلة التي تحفظ النص من أي

تحريف أو اجتهاد شخصي لا أساس له، ويجعل المعنى الإلهي متاحًا للأجيال كما فهمه النبي ﷺ والسلف الصالح. فالأهمية الجوهرية لهذا التفسير ليست مجرد التمسك بالنقل، بل تتعداه إلى صيانة العقل والروح معًا، عبر ربط النص القرآني بسياقه التاريخي واللغوي والمعرفي، ومن ثم توجيه الإنسان نحو التطبيق العملي الذي يعكس حكمة الله.

فالمرجع الأول والأصل الذي يعتمد عليه المفسرون في تفسير الآيات هو القرآن بالقرآن، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: 7).

فيتضح من هذا أن الفهم الصحيح للقرآن يتطلب الالتزام بما ثبت عن النبي ﷺ والصحابة، ما يضمن صحة المعنى وسلامة التفسير، ويبعد عن التأويلات الشخصية والمواقف المجتزأة.

أما أثر التفسير بالمأثور في حياة الأمة، فهو عميق ومتعدد المستويات. على المستوى العلمي، فقد أرسى قواعد نقدية دقيقة لروايات التفسير، وحدد معايير التوثيق والاعتماد على السند، ما مهد لظهور علوم الحديث والقراءات واللغة بشكل متكامل. وعلى المستوى العملي والروحي، فقد وفّر للأمة مرجعية مستقرة لفهم الأحكام والتوجيهات، وتوجيه السلوك الفردي والجماعي وفق ما أراده الله، بعيدًا عن الانحرافات الفكرية أو الاجتهادات المبنية على الظن.

يتضح أثر التفسير بالمأثور أيضًا في صيانة الهوية الدينية والثقافية للأمة الإسلامية، إذ يمثل رابطًا مباشرًا بين الأجيال وبين نصوص الوحي، محميًا من الطمس أو التزييف، وموفرًا فهمًا موحدًا للقرآن في كل زمان ومكان. فقد قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: "وإنما جمعنا هذا التفسير ليعلم القارئ ما كان يُروى عن النبي ﷺ والصحابة من معاني القرآن، فلا يضل عنه" (ابن كثير، 1999، ج1، ص15).

وبالتالي، فإن التفسير بالمأثور ليس مجرد نقل كلمات أو شرح معاني، بل هو أداة فلسفية ومعرفية تربط الإنسان بالواقع القرآني، وتفتح أمامه أفقًا لفهم الحياة، الأخلاق، والتشريع كما قصدها الله، من دون إسقاطات شخصية أو تحريفات عقلية.

باختصار، الأهمية الجوهرية للتفسير بالمأثور تكمن في أنه يحفظ النص، يربط الأجيال، يوجه السلوك، ويؤسس للفهم الصحيح المتكامل، بينما أثره يتجلى في استقرار العلم، وضبط الهوية، وعمق الفهم الروحي والمعرفي للأمة الإسلامية عبر القرون (السيوطي، 1998، ج1، ص24؛ الذهبي، 1976، ص78)، ويظهر هذا الالتزام في جميع روايات الصحابة والتابعين الذين فهموا السياق التاريخي للآيات، وربطوا بين الكلمات والمعاني والمواقف التي نزلت فيها. فتفسير ابن عباس للآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22)، لا يكتفي بالمعنى الظاهر، بل يربطه بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان،

مستحضرًا أثر الشرك الخفي في حياة الناس اليومية، ما يجعل الفهم أكثر عمقًا وواقعية (ابن النديم، 2009، ص41).

ومن خصائص هذا التفسير أيضًا شمولية النظر؛ فهو يجمع بين القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، فلا يترك فجوة في فهم المعنى، بل يربط بين آيات الكتاب نفسه، وبين أحكامه وتوجيهاته العملية، بما يحقق تكاملاً بين العقل والنقل، بين اللغة والسياق، بين النص والواقع. وهذا التكامل هو ما يميز التفسير بالمأثور عن غيره، ويجعله أداة فلسفية لفهم القرآن بعمق، لا مجرد مرجع نصي جامد.

كما أن التفسير بالمأثور يمتاز بكونه ضمانة للمعنى الثابت، حيث يبعد المفسر عن التأويل الشخصي والانحرافات الفكرية، ويحافظ على النص القرآني نابضًا بالصدق والواقعية الإيمانية، كما أشار النبي ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" (الترمذي، 1998، ج5، ص199).

وفي هذا السياق، يصبح التفسير بالمأثور فضاء معرفيًا متكاملاً، يربط بين الإنسان ونصوص الوحي، بين الماضي والحاضر، بين القول والعمل، بحيث لا يقتصر على التفسير الحرفي، بل يتحول إلى تجربة فلسفية روحية لفهم القرآن، ومفتاحًا لإدراك عمق معانيه وجمالية خطابه، وسبيلًا للانفتاح على حكمة الله المتمثلة في كلامه، فالخصائص العامة للتفسير بالمأثور تكمن في الأصالة، الموثوقية، الشمولية، الالتزام بالسياق، والربط العميق بين النص والواقع، مما يجعله صمام الأمان لفهم القرآن الكريم على نحو دقيق وفلسفي في آن واحد (ابن كثير، 1999، ج1، ص12؛ السيوطي، 1998، ج1، ص24).

المطلب الثاني: أثر التفسير بالمأثور في بناء المناهج التفسيرية اللاحقة:

لقد شكل التفسير بالمأثور العمود الفقري لكل ما جاء بعده من مناهج تفسيرية، فهو المرجعية الأصلية التي انطلقت منها جهود المفسرين في العصور اللاحقة لتطوير العلوم القرآنية. فالأمة لم تتلق القرآن مجرد نصّ، بل تسلمت شواهد تطبيقية ومعايير دقيقة لفهم النص كما فهمه النبي ﷺ والسلف الصالح، وهذا ما أرسى الأسس لمناهج التفسير التالية، وجعلها متينة في الأصول، عميقة في المعنى، متماسكة في البناء.

أثر التفسير بالمأثور لم يقتصر على نقل المعاني، بل امتد ليكون إطارًا معرفيًا ومنهجيًا، يوجه المفسر لاحقًا في كيفية التعامل مع النصوص، ومتى يُقبل القول، ومتى يُرد. فقد اعتمد المفسرون اللاحقون على هذه الروايات كأساس لميادين متعددة: اللغة والبلاغة، الفقه، أسباب النزول، القراءات (عبد الله، 2021، ص12).

والربط بين الآيات، فاستلهموا من نصوص الصحابة والتابعين المنهجية في التفسير الموثوق، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 282).

فالمعرفة القرآنية لا تقتصر على الحفظ أو القراءة، بل تشمل الفهم والتدبر، وهو ما تحقق بالالتزام بالمأثور. ومن هنا، فقد كان التفسير بالمأثور النواة التي بنيت عليها مؤلفات مثل تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، إذ جمع هؤلاء المفسرون الروايات الموثوقة، ودرسوا معانيها، وربطوها بالسياق التاريخي واللغوي، ثم بنوا منها مناهج تفسيرية منظمة تعتمد على النقل أولًا ثم الترجيح العقلاني بعد ذلك (ابن كثير، 1999، ج1، ص17).

كما أسهم التفسير بالمأثور في تشكيل أطر علمية للعلوم المرتبطة بالقرآن، مثل علوم الحديث والفقه واللغة، فالمفسر اللاحق لم يعد يعتمد على الآراء المجردة، بل على معايير موثوقة للنقد والتحليل، تتيح له التمييز بين الصحيح والضعيف، بين المعنى الأصلي والمعنى المشتبه فيه. هذا ما أضفى على مناهج التفسير طابعًا علميًا متينًا منذ القرن الرابع الهجري فصاعدًا، وجعلها قابلة للنمو والتطور دون المساس بالمأثور.

ومن الأثر العملي أيضًا أن التفسير بالمأثور رسم معايير الالتزام الأخلاقي والسلوكي للمفسر والمجتمع، فالمعاني المأثورة لم تكن كلمات جامدة، بل كانت أدوات حياة وأسس تربية روحانية، تُوجه المجتمع نحو فهم القرآن كما أراد الله، وهو ما تجلى في المناهج الفقهية والبلاغية التي اعتمدت على هذه الروايات كأساس لا يتزعزع (السيوطي، 1998، ج2، ص112).

باختصار، فان أثر التفسير بالمأثور في بناء المناهج التفسيرية اللاحقة يتجسد في ثلاثة أبعاد متكاملة:

1. البعد المعرفي: توفير المرجعية الأصلية لفهم المعاني بدقة، ومنع الانحراف.
2. البعد المنهجي: وضع قواعد للنقد والتحقق، وإرساء أسس الترجيح بين الروايات.
3. البعد العملي والروحي: ربط النص بالسلوك والتطبيق، وصيانة الهوية القرآنية للأمة.

وبهذا، يصبح التفسير بالمأثور ليس مجرد مرجع نصي، بل منهجًا فلسفيًا وأداة تربوية متكاملة، ينهل منها كل مفسر لاحق ويستفيد منها الباحث في علوم القرآن، محافظًا على التواصل بين الأجيال ومضمون النص الإلهي كما فهمه السلف الصالح (الذهبي، 1976، ص160؛ ابن تيمية، 1987، ص98).

وعليه يصبح المفسر بالمأثور حافظًا للنص، ومرشدًا للقارئ، وضامنًا لصحة المعنى، أي أنه ليس مجرد ناقل بل شريك في نقل الحكمة الإلهية إلى الأجيال القادمة، فينبغي على المفسر أن يكون مدركًا لسياق النزول والتاريخ الإسلامي، لأن فهم المعنى مرتبط بالواقع الذي نزلت فيه الآيات، وما يترتب عليها من أحكام وتوجيهات عملية. فالربط بين النصوص والسياق الاجتماعي واللغوي هو ما يجعل التفسير بالمأثور حيًا وفعّالًا وليس مجرد كلمات جامدة على الورق.

كما يجب أن يمتنع المفسر عن الاختزال أو التجزئة في نقل الآيات، بل عليه ربطها بمعانيها الكلية وتكاملها الداخلي. فالقرآن منظومة متكاملة، والتفسير بالمأثور يحافظ على هذا التكامل، فيربط بين الآية والآية، والسورة والسورة، وفق ما نقله السلف عن النبي ﷺ، ليصبح المفسر بالمأثور جسرًا بين الماضي والحاضر، بين النص والواقع، بين النقل والفهم المعرفي، وهو حامل الأمانة العلمية والفكرية والروحية معًا، محافظًا على المعنى الإلهي، وموصلًا إياه إلى الأجيال لاحقة في وضوح وسلامة.

وأخيرا فإن الضوابط وشروط المفسر بالمأثور ليست مجرد قواعد علمية، بل مبادئ فلسفية وأخلاقية وروحية تحمي النص من التحريف، (نجم، 2025، ص11) وتحفظ العقل البشري من التأويلات الخاطئة، وتؤكد أن التفسير بالمأثور ليس مجرد علم، بل ممارسة للوعي القرآني، وعبادة للمعرفة الإلهية، ووسيلة لفهم الحياة كما أرادها الله (الذهبي، 1976، ص160؛ ابن تيمية، 1987، ص98).

الخاتمة

أولاً: الاستنتاجات:

1. يتضح أن التفسير بالمأثور هو الأساس التاريخي لفهم القرآن منذ نشأته، لأنه يعتمد على ما ورد عن النبي ﷺ، الصحابة، والتابعين، مع مراعاة الدقة في النقل والسند.
2. برز التفسير بالمأثور في العصور الراشدي، الأموي، والعباسي كمنهج متكامل حافظ على النص، وربط بين الكلمات والسياق التاريخي واللغوي.
3. أثبت البحث أن أهمية التفسير بالمأثور تتجاوز مجرد النقل، فهي تشمل الحفاظ على المعنى الإلهي، توجيه السلوك الفردي والجماعي، وتوفير المرجعية للأجيال اللاحقة.
4. تبين أن أثر التفسير بالمأثور في بناء المناهج التفسيرية اللاحقة كان عميقًا، إذ شكل الأساس الذي اعتمد عليه كبار المفسرين مثل الطبري وابن كثير والقرطبي، مع وضع قواعد للربط بين الآيات والعلوم المساعدة كاللغة والبلاغة والفقه.
5. تبين أن ضوابط المفسر وشروطه (مثل الدقة في النقل، الإلمام باللغة والسياق، الأمانة العلمية، والتقوى) هي جوهرية للحفاظ على صحة التفسير وموثوقيته.

ثانياً: التوصيات:

1. ضرورة تعليم التفسير بالمأثور في المناهج الأكاديمية الحديثة بشكل مفصل، لضمان فهم القرآن كما أراده السلف الصالح.
2. التشديد على تطبيق ضوابط المفسر وشروطه في الدراسات القرآنية المعاصرة، لتجنب الاجتهادات العشوائية أو التأويلات غير الصحيحة.

3. تشجيع الباحثين على الربط بين التفسير بالمأثور والعلوم المساعدة مثل اللغة والفقه والبلاغة، لتعميق الفهم القرآني.
4. العمل على توسيع الدراسات المقارنة بين التفسير بالمأثور والرأي لتوضيح مزايا المنهج المأثور وأثره في صياغة الفكر الإسلامي.
5. ضرورة حفظ التراث التفسيري القديم من خلال النسخ الرقمية والتوثيق الأكاديمي، لضمان استمرارية الوصول إلى المصادر الأصلية للأجيال القادمة.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن أبي حاتم الرازي. (1998). تفسير القرآن العظيم. دار الكتب العلمية.
2. ابن النديم. (2009). الفهرست. دار الكتاب العربي.
3. ابن تيمية. (1987). مقدمة في أصول التفسير. دار المعرفة.
4. ابن جرير الطبري. (1998). جامع البيان عن تأويل القرآن (ج1-10). دار الفكر العربي.
5. ابن جرير وابن كثير والقرطبي. (مراجع مقارنة). تحليل ومقارنة بين المصنفات التفسيرية القديمة.
6. ابن عباس، تفسير مأثور. (1999). مقتطفات من روايات ابن عباس في كتب التفسير.
7. ابن كثير. (1999). تفسير القرآن العظيم (ج1-3). دار الفكر.
8. الترمذي، محمد بن عيسى. (1998). السنن (ج5). دار الفكر العربي.
9. الجبوري، توفيق هلال ناصر، دراسة دلالية الصرفية في ألفاظ القرآن الكريم، مجلة جامعة كركوك/ للدراسات الإنسانية المجلد 15: العدد2: لسنة2020.
10. خالد دعيجل نجم، المواقف التي أقسم عليها رسول صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية تحليلية، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية المجلد (20) العدد الأول، الجزء الثاني– أ – شهر حزيران 2025.
11. خلف، ضياء سرحان، أثر القرآن في معالجة الظواهر السلبية لدى الفرد والأسرة والمجتمع، مجلة جامعة كركوك/ للدراسات الإنسانية المجلد 16: العدد1: لسنة2020.
12. الذهبي، محمد. (1976). التفسير والمفسرون. دار الكتب العلمية.
13. الزجاج، عبد الرحمن. (1996). معاني القرآن. دار الكتب العلمية.
14. الزركشي، محمد بن الحسن. (1988). البرهان في علوم القرآن (ج1). دار الكتب العلمية.
15. السيوطي، جلال الدين. (1998). الإتقان في علوم القرآن (ج1-2). دار إحياء التراث العربي.

16. عبد الرزاق الصنعاني. (1995). المصنف في التفسير. مكتبة الرشد.
17. عبد الله، هيوا عثمان، تناوب حروف الجر وأثره في الاعجاز القرآني، مجلة جامعة كركوك/ للدراسات الإنسانية المجلد 16: العدد1: لسنة2020.
18. الفراء، أبو سعيد. (1997). البلاغة في القرآن. مكتبة الخانجي.
19. القرطبي، محمد بن أحمد. (2001). الجامع لأحكام القرآن. دار الفكر العربي.
20. الماوردي، أبو الحسن. (2003). أحكام القرآن. دار الكتب العلمية.
21. الواحدي، النيسابوري. (2000). أسباب النزول. دار الفكر العربي.